غسان كنفاني والتراجيديا الفلسطينية

محمد الأسعد

من الصعب على من لم يعش تجربة المنفى ان يستوعب هذه التجربة بكامل ابعادها . وعبر عدة اجيال فلسطينية مرت بها . فالنفي عن الوطن ليس الا العنوان الاول لرواية ذات فصول وعناوين عديدة .

وكلمة الوطن هذه : كيف يمكن استيعابها بعيدا عن مجرد حروفها اللفظية ؟ كيف يمكن تجسيدها واعطاء مغزاها الكامل مداه ؟

ان كل الذكريات في الحاضر والماضي ، الملامح والالوان . الامسيات والنهارات . احداث الطفولة والصبا، ليست الا مظهر هذه التجربة . ولا يكمن جذرها الحقيقي الا في النفي الشامل عن كل فعالية بشرية . فالاختيار هنا لم يات بعد . والارض ليست هي الارض ، والناس ليسوا هم الناس . لقد تغير العالم .. وهبطت امواج كل فعالية لتأمين البقاء فقط .

ان تجربة النفي بهذا المفهوم متعددة المستويات : انها بالنسبة للفلاح الفلسطيني ضياع عالمه . ضياع الافق الجديد بالثقة . وهي بالنسبة للمثقف الفلسطيني انقذافه في عالم يجهله . عالم يحيل مستوى فعاليته الى مستوى المحافظة على البقاء .

ومهما تعددت تصورات المشردين لمسالة النفي ، فهي تصل في نهاية غورها الى هذه الرؤيا : الفردوس المفقود . ولانه يظل في عالم الذكرى فقط ولا ياتي ابدا يصل المنفي الى ارض البواعث الوجودية المفقودة .

انقطاع الجسر الذي يصلنا بالاشياء .

لقد عانى الجيل الفلسطيني الاول من معضلة الانقطاع هذه . ونحن الجيل الذي وجه نفسه في التيه لم تتح له الفرصة ليتفهم دوافع الاباء المسنين، وبواعث سلوكياتهم في المخيمات واماكن اللجوء .

لقد سقط بروميثيوس الفلسطيني ، وتحول الى لاجيء يتابع اخبار الصحف ، وما يقول عنه الالهة الكبار .

هل كان ينتظر الخلاص ؟ نعم لقد كان ينتظر الخلاص ، وكانت صقور العذاب لا تنى تحط على صدره المتعب لتنشب فيه مخالبها .

حقا لقد كان الجيل الفلسطيني الاول هو جيل بروميثيوس سارق النار الذي اتهموه بتخريب احلام النائمين .

وقد تنوعت التجارب واختلطت ما بين جيل يفتح عينيه على المأساة ، وجيل فقا عينيه لكي لا يرى. وان كان يجمع بين الاجيال المتجاورة في السنوات الاولى مصطلح الذهول .

وفي الحقيقة لم يكن هذا الذهول طابعا فلسطينيا فقط ، بل امتد ليصبح طابعا عربيا .

ففي وسط الركام لم يلد فقط الجيل الفلسطيني الذي شهد النكبة ، بل ولدت الاجيال العربية كلها . واذا كانت تجربة الولادة والنشوء هذه لم تمتد الا بشكل غامض وآني وسريع الى تجربة الكتاب العرب ، فما ذلك الا لان الفلسطيني حمل عنهم عبء الصليب . فكانوا بذلك نظارة الحفل غير العادي الذي اقامه الفزاة الصهاينة والدمى العربية على ارض فلسطين .

وليس ذلك فقط . فقد كان على الفلسطيني ان يحمل عبء الوجود العربي ، بدءا من هموم الوطن الجغرافي وانتهاء بالوطن المصير .

هل هي اسطورة هذه البطولة التي وحدت سنوات التشرد في سمفونية فاجعة تمتد طيلة السنوات الماضية ؟

اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان السنوات التي مرت منذ سقوط بروميثيوس الفلسطيني قد شهدت طموحا خارقا الهب افئدة الاف الشباب العربي .

ووسم هذه المرحلة بميسيم قوى لا ينسى .

فمنذ ان بدا تفجر الصراع في اعقاب النكبة ، شهدنا الاف الشباب العرب تدفعهم مثل سامية في الحياة يتخطون حواجز ملوك الطوائف الجدد ، ليبدأوا مسيرة لا زالت تواصل الطريق .

عذب الكثيرون في اقبية المخابرات . استشهد الكثيرون . ولكن الحركة كانت تمتد ، وتتحدى ليبدأ خلق الانسان الجديد .

وفي هذه الملحمة البطولية كان على شاب فلسطيني من مواليد عكا ان يتحمل عبء الصعود . ذلك هو « غسان كنفاني » .

فهل كان على هذا الشاب النحيل ان يلتفت الى الوراء . الى الماضي ؟ وهل كان عليه ان ينظر امامه الى المستقبل ؟

يخيل لي انه قد فعل ذلك . فان تولد في زحمة تساقط الانقاض ، وضياع الوطن ، وان تلتفت حولك لتستكشف العالم ، وان تحاول التعبير .. تلك هي صورة الفنان صغيرا في مخيمات اللجوء . والذي سيكون علينا ان ننتظره بعد عدة سنوات ليكون قد بدأ تمرده الطويل .

وفي الظروف التي يعيشها الفلسطيني ، هذه الظروف التي حولت كلمة فلسطيني الى خطيئة ، وكلمة لاجيء الى شتيمة ، في هذه الظروف اي خطيئة لا تصبح مقدسة ؟ واي عناق سيكون اجمل من معانقة فلسطين ؟ لم تعد فلسطين اردنا . فردوسا مفقودا . بيتا . او شجرة . لقد اصبحت كل شيء .

فاذا كان الجيل الاول في مرحلة تكذيب النفي يعد يدري كيف يتحدث عن فلسطين دون ذكر التين والشجرة وايام الحصاد ، فان الجيل الذي منه « غسان » بدأ يحول فلسطين الى قضية . وذلك قبل ذلك كيف كانت الرحلة العمياء في صحراء الخيانة ؟

لقد اتصلت رحلة الفلسطيني في هذه الصحراء باولى روايات غسان « رجال في الشمس ». حيث اصبح الحديث عن الرجال حديثا عن الفلسطينيين الذين منعوا من كل شيء حتى من حق الهرب . واصبح الحديث عن هذه المأساة الواقعية حديثا عن القضية في ظلال العجز وفقدان الجسود .

الكثيرون لا يعلمون كم ابتلعت هذه الصحراء الممتدة من الاردن الى الكويت من الفلسطينيين . وكذلك هم لا يعلمون كم ابتلعت اجهزة القمع العربية على امتداد الوطن الكبير من الفلسطينيين . فكل يعرف « ابو الخيزران » انهم لم يدفنوا جميعا في الخزان الحديدي ؟

هو لا يعرف فعلا ... فالنظارة كانوا اكثر من المشاركين .

ومن اجل هذا كان يجب ان يستيقظ الوطن في الاعماق . ان للاديب « غسان كنفاني » هنا وسائله ومجالاته ، والتزامه الاخلاقي النابع من فلسطينيته . فاذا كان يتحرك على مستوى النضال الحزبي ليستيقظ الوطن . فقد كان لا بد له كاديب ايضا ان يكتشف هذا الوطن في المنفى .

منوعة هي القصص التي كتبها في « ارض البرتقال الحزين » وفي « موت سرير رقم ١٢ » وفي « رجال في الشمس » الرواية التي تقص عدة مصائر في يوم واحد .

ان نستكشف في هذه البدايات الاولى الرغبة الملحة في ان يستيقظ كل شيء يمس الوطن . ان نجد مساهمة عميقة في تعرية الزوايا المظلمة من النفس البشرية . في عرضها على النور . انها محاولة الجيل الاول تعود مرة اخرى لتتخذ وجودا : ان يكون شجاعا يأكله الندم . انه الهم الفلسطيني الخاص المشدود حتى هذه اللحظة الى الرأس الذي هبط منه لخطيئة لا يدري : خطيئة ماذا ؟ ..

وهنا هناك .. » عبارة سمعناها صغارا على شفاه الاباء المسنين . ويتمنى الفنان الشاب ان يعرف : لماذا يكون الموت هناك اجمل ؟ ان الجواب لا يكون حاضرا . انه موت رهين بالشيء الذي ذهب . فما هو « الشيء الذي لا يموت » ؟ الشيء الذي يستطيع الفنان الشاب ان يعطيه حياته ؟

- ٢ -

ان الفلسطيني الذي يعيش في وطنه يشعر بنوع اخر ، فيدفعه هذا الشعور الى التمرد بالهوية في وجه الغزاة ، فانني اعتقد ان الفلسطيني في مخيمات اللجوء كان بحاجة ايضا الى الهوية ، وليس فقط للتفكير في فلسطين

ان تجربة السنوات الماضية لم تسحق بعبئها الفلسطينية بنفس الصورة . فالجيل الاول حاول ان يتخلص منه مقاتل الى قارىء للصحف كان من الواجب عليه الا ينسى الحاضر الموبوء ، والا يهرب من الوطن الماثل امامه وراء الحدود . كان من الصعب عليك ان تقتنع ان ١+١ يساوي اثنين. ان جيل غسان الشاب الذي حولوه الى مجرد اكثر ، كان من المستحيل عليه الا يبحث عن

سنوات الحظر ، والمنع حتى من الاحتجاج، ان لا يبدأ فقط الهدف والتحرك في دروب الحياة لان الخراب الشامل يجعل من هذا الهدف

هذا الجانب من حياة غسان كان النضال يجيب الانسان على ابسط سؤال ، يجب ان عرف الجواب على الاسئلة الاكثر شمولا . فلسطين بالمصير العام للوجود العربي ، الحاحا على الذهن في هذه المرحلة هو : الخاص المصير الخاص مع المصير العام ! ومتى؟

اكتشاف الوطن يبدأ من نقطة التعرية ، فاذا سالم » باستشهاده يندر بميلاد شبح ، فلماذا ذكريا » ـ الخيانة ـ في الحياة .

ان المصير وهو يندر بميلاد جديد يتحول الى ضوء يكشف اكثر نقط الظلام كثافة . وعلى مستوى الوطن الصغير يبدو ان كل المشكلات : الندم . الخيانة . فقدان الشجاعة لا تجد حلها الا على مستوى الوطن الكبير .

فقد ارتبط مصير فلسطين بمصير كل الارض العربية على مستوى النضال السياسي . انك لا تستطيع ان تجد منفذا من هذا الحصار دون استكشاف ابعاده . وكانت هذه الابعاد هي الوطن العربي . اندفع الاف الشباب الفلسطيني في طريق الثورة العربية ، وساهموا في نضالاتها ، واخترقوا نظام حظر التجول .. وكان الفلسطيني « حامد » الذي اطلقه غسان من اسار كرة الصوف التي لفوها عليه عشرين عاما في غزة تجربة الفلسطيني الجديد بعد عودته من التيه .

وهنا يجاب على السؤال الاول : لماذا يكون هناك الموت اجمل ؟

ان الصحراء الحانية هنا ، وهي صحراء الخيانة هناك في رجال تحت الشمس ، تصله ليس بالماضي فقط ، بل بالحاضر ايضا وبالمستقبل . وهذه الانتقالة من المنفى ـ انتفاء دوافع الحياة ـ الى الوطن حيث الام ، والامن الضائع والشرف الذي انتهكه « ذكريا » وهي دوافع للمستقبل ، ان هذه الانتقالة تشير الى بداية بناء العلاقات .

الانسان الفلسطيني يعيد علاقته بالحاضر بعد ان مر في جحيم الماضي .

وسيكون على « حامد » ان يؤسس في رحلته اولى خطوات الثورة .

المواجهة لم تعد مواجهة للماضي ، بل لهذا الحاضر الصلب ، للعدو الذي يغتصب الارض ، ويغتصب معها انسانيتي .

وهكذا بلا خطيئة لم تكن يبدا التطهر من ضروب الندم والاحساس بالذنب والغياب عن الحضور. كل هذا في مواجهة بالغة الدلالة بين الفلسطيني والاسرائيلي .

ان هذه العودة الى ارض الصراع الحقيقي كانت هاجس شخوص القصص القصيرة احيانا ، ولكنه هاجس حلمي ، يضع لافتة على بوابة العالم : «عالم ليس لنا .. » .

واذا اخذنا المعنى المقصود على المستوى العام فسيكون هذا قصرا في النظر ، فالعالم فعلا ليس للعامل « علي اكبر » الذي يموت منسيا . ليس لهؤلاء المنسيين الذي قطعت بشراسة علاقتهم بالعالم. والفرق هنا هو ان هذه الواقعية الحادة تريد ان تصل بالمرارة حتى العظم . ومن هنا ايجابية هذه الهواجس التي تنتاب سكان الجحيم .

فالعودة الى ارض الصراع الحقيقي هي عودة شعارها :

« ليكن العالم لنا .. » .

هذا هو المغزى الاعمق لرحلة « حامد » عبر الصحراء الحانية هذه المرة .

البقية في العدد القادم

من نتاج الرفاق

الحقد القديم

فقد العقل مكانه
وتولى الحقد شانه
وتقاع الطهر ولى
فبدا وجه الخيانه
ويلكم ماذا جنيتم
تلك في عين زمانه
قد تصرفتم بحمق
فوقعتم بالادانه
قد صبرنا وظننتم
ذاك ذلا ومهانه
لا ولكن كان منا
كل شيء في أوانه

★★★

انتم البادون ظلما
امتدادا من كحاله
قد غدرتم غدر لؤم
كان جبنا ونذاله
وتماديتم بخبث
وافتراء وعماله
ثم سرتم في طريق
انتم لستم رجاله
بعدما سرتم وصلتم
جبلا صعب مناله
عجبي من قزم يرى
نو لشيء لن يطاله

★★★

حقدكم هذا قديم
قد ورثتوه تباعا
وحسبتموه صوابا
فوقعتم بالضياعا
انتم والحقد والا
يام اعلنتم صراعا
قد ولجتم لجة ها
لجة دون شراعا
جذفوا باللجة الظلا
ماء لن يبدو شعاعا
حدكم هذا وان زد
تم تزادون اندفاعا

ابو زهير